منهج الإسلام
في الحفاظ على البيئة من التلوث

د. عدنان أحمد الصمادي*

(*) أستاذ مساعد في كلية الشريعة – جامعة جرش ورئيس قسم الفقه وأصول الدين – الأردن.

ملخص البحث:

مفهوم البيئة يعني – تحديداً – الإطار المكاني الذي يعيش فيه الإنسان، ويشمل كل ما يحيط بالإنسان من كائنات حية، وغير حية، وهو يؤثر فيها، ويتأثر بها. سواء أكانت بيئة طبيعية أم بيئة صناعية. والتلوث: هو إفساد مكونات البيئة، بحيث تتحول من عناصر مفيدة إلى عناصر ضارة، لفقدانها أثرها في صنع الحياة. وغالباً ما يتم هذا بفعل الإنسان نفسه: عن طريق الإهمال، أو سوء الاستخدام. ومن تعاليم ديننا: الحفاظ على البيئة وحمايتها، حيث حث على عمارة الأرض، واستصلاحها، وإحياء مواتها، والإحسان إلى جميع مخلوقاتها، والحرص على عدم الإضرار بشيء منها، وإصلاحه إذا حصل.

ويستطيع الدارس تحديد الحقائق التالية:

أولاً: إن سبب التلوث هو الإنسان بفساده وانحرافه، ومنشأ ذلك: فساد مفاهيمه عن الحياة، وعلاج الفساد يكون بتغيير مفاهيم الإنسان المنحرفة عن الحياة.

ثانياً: إن تشريعات الإسلام المنبثقة عن وجهة نظره في الحياة تحول دون الفساد في الأرض وتلوث البيئة.

ثالثاً: ضمن الإسلام تطبيق هذه التشريعات والالتزام بها من خلال المؤيدات الشرعية المتعلقة لهذا الجانب.

ومن أجل العيش في بيئة صالحة فإن الجميع مطالبون بأمور:

أولاً: نشر الوعي بين الناس عن أهمية المحافظة على البيئة والتحذير من خطورة التلوث عن طريق وسائل الإعلام المختلفة، وعقد المؤتمرات العلمية وإيجاد مراكز دراسات متخصصة لذلك.

ثانياً: تضمين مناهج التعليم في المراحل المختلفة منهج الإسلام في التعامل مع البيئة، والمحافظة عليها، ووضع الحلول وفق الشريعة الإسلامية.

ثالثاً: مطالبة الدول في العالم الإسلامي بالتوجه بالعمران نحو الصحراء حماية للمناطق الزراعية من زحف العمران والبناء.

رابعاً: دعوة الحكومات في العالم لإقامة المشاريع الصناعية بعيداً عن التجمعات السكانية حتى لا تتأثر بالآثار السلبية لهذه الصناعات.

خامساً: دعوة الدول في العالم إلى معالجة المشاكل الناجمة عن محطات التنقية للمياه العادمة، بحيث تكون بعيدة عن مصادر المياه والينابيع والسدود والبحيرات والتجمعات السكانية.

سادساً: دعوة المفكرين والباحثين في مجالاتهم إلى عرض الرؤية الإسلامية الشاملة للبيئة ومشكلاتها، والعمل على تصحيح المسار، وبيان مواطن الخلل كلما أتيحت لهم الفرصة في المحافل العلمية والفكرية.

سابعاً: التأكيد على دور المنظمات والمؤسسات الحكومية والخاصة في نشر الوعي البيئي وفق القواعد الإسلامية.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، أمر بالعدل والإحسان، ونهى عن الفساد والظلم والعدوان، أمر بالصلاح والإصلاح ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1] ونهى عن الفساد في الأرض والخروج على أوامر الله ونواهيه، ودعا الناس إلى سلوك طريق الهدى فمن اتبع هداه فلا يضل ولا يشقى، ومن يعرض عن ذكره فإن له معيشة ضنكاً ويحشره يوم القيامة أعمى. وجعل الفساد سبب الهلاك، والفساد إنما هو انحراف في العقيدة وانحراف بالمفاهيم عن الحياة، وهو تلاعب بالميزان الذي وضعه الله تعالى، ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾[2] والفساد تلوث عقدي وفكري يؤدي إلى تلوث البيئة التي يمارس الإنسان حياته فيها، فينعكس هذا على سائر سلوكه وتصرفاته.

إن مشكلة التلوث البيئي الذي يحصل من تغير حالة البيئة أو تركيبها، كنتيجة مباشرة أو غير مباشرة لأنشطة الإنسان، والذي بهذا التغير تصبح غير صالحة للاستعمالات التي كانت عليها في حالتها الطبيعية، أو أقل صلاحية مما كانت عليه في حال الكمال والنقاء والصفاء. وينطوي هذا الوصف على حدوث تغيرات نوعية وكمية في الخواص الفيزيائية، والكيميائية والبيولوجية للمكونات المختلفة للبيئة (الهواء والماء والتربة والغذاء والمحيط المهني والسكني والترفيهي)[3]، والتي أنتجت أضراراً لحقت بحياة الأفراد والجماعات، والكائنات الحية الأخرى، وسببت بانتشار الأمراض والأوبئة وكثرة الوفيات وارتفاع درجة حرارة الأرض وندرة المياه وزحف الصحاري، وقد ظهرت خطورة تلويث المياه والذي يشكل المادة الحيوية الأساسية في العالم في العقود الأخيرة من القرن الماضي، مما جعل أمر المحافظة على المياه ومنع تلويثها صعب المنال خاصة

---

(١) هود آية ١١٧.

(٢) الرحمن، الآيات ٦، ٧.

(٣) سليمان رأفت، أخطار تلوث البيئة، ص٧٥، مجلة الأمة، عدد ٢٧، السنة الثالثة ١٩٨٣م.

في الظروف الراهنة، ففي البحر الأبيض المتوسط مثلاً تلقى (٤٠٠) مليون م^{٣} من النفايات، وخاصة المياه العادمة، وكذلك تلقى في الأنهار العذبة التي يعيش عليها الناس مياه المعامل، كمعامل تكرير البترول والنسيج بمياهها الملوثة ومحطات توليد الكهرباء والمعاصر ومعامل صناعة الأسمدة، ناهيك عن ورشات إصلاح السيارات والمجازر، وقد زاد الطين بلة مصدر جديد من مصادر التلوث ألا وهو الحمأة، وهي النفايات الصلبة التي تنتج عن عمليات معالجة المياه العادمة في محطات التنقية، وتحتوي هذه الحمأة على مواد عضوية ونسبة أقل من المواد غير العضوية وجراثيم الأمراض وغيرها(١).

ولعل أخطرها على صحة الإنسان ما يلقى في مياه الأنهار والبحيرات والبحار، فتزيدها تلوثاً بالكبريت والنحاس والزنك ومركبات الزئبق وغيرها من المركبات السامة التي تنتقل إلى الإنسان عن طريق السلاسل الغذائية التي تنقل ايثيل وميثيل الزئبق اللذين يسببان ارتخاء تدريجياً في العضلات، وفقدان البصر... إلخ.

ويبرز حجم المشكلة في النفايات الصلبة التي افرزتها التطورات الحديثة، ومتطلبات الحياة العصرية، وعلى رأس هذه النفايات التي تقلق البشرية وتقض مضاجعها النفايات النووية المشعة، والمسرطنة، والسامة، وكذلك النفايات المنزلية والمعملية، فهناك ملايين الأطنان من النفايات يتخلص منها الناس كل يوم، تتجمع في أماكن سكن الناس أو قريبة من المياه السطحية وفرشات المياه الجوفية، وهذه النفايات رغم ما خصص لها من إمكانات ووسائل تشكل خطراً بيئياً، إذ لا تزال مشاكل جمعها وخزنها ومواضع إحراقها أو دفنها أو معالجتها أحد أسباب التلوث. ولا تزال تؤثر بشكل سلبي على سطح الأرض سواء دفنت أو حرقت أو عولجت بشكل غير نقي وغير فعال(٢).

---

(١) سامح الغرايبه، التلوث البيئي في الأردن، ص ٩١، الموسم الثقافي في العالم، ١٩٨٧، جامعة اليرموك، اربد ١٩٨٨م.

(٢) المراجع السابقة.

ومن الملوثات التي باتت تشكل خطراً كبيراً على حياة الأفراد والمجتمعات المحلية والدولية.. الضوضاء الناتجة عن الصناعات واستخدامها ووسائل النقل الحديثة، فقد أثبتت الدراسات والبحوث: أن أدني مستوى للصوت صفر وهو ما يمكن سماعه عادة ويبدأ الأثير المدمر إذا بلغت شدة الضوضاء (٨٥) Decibel ديسيبل، فقد يؤثر على التغيرات التي تنقل الأصوات إلى المخ ويتساوى التأثير بالضوضاء المستيقظ والنائم، وهذا يؤدي إلى أضرار جسيمة كفقدان السمع وأضرار نفسية كالتوتر العصبي والانهيار العقلي والعنف الذي أصبح من سمات العصر.

ولا يقف التلوث عند هذا الحد، بل امتد إلى استنزاف طاقات الأرض الزراعية بزراعتها بمحاصيل تفقد الأرض خصوبتها وإرهاقها ثم تصحرها، كزراعة التبغ في العالم، وزراعة البن في بعض بلدان أمريكا اللاتينية، وغير ذلك، ومن أخطر الملوثات الناتجة عن التقدم الصناعي: تزايد غاز ثاني أكسيد الكربون الذي يمتص جزءاً من حرارة الشمس التي تسقط على الأرض، ويختزن هذه الحرارة، مسبباً ما يعرف بالصوبة النباتية، إلا أن الزيادة الملحوظة لهذا الغاز أدى إلى ارتفاع درجة حرارة الصوبة التي نعيش فيها، ونتج عنها ثقب في طبقة الأوزون، وارتفاع درجة الحرارة على سطح الأرض، وتغيرات مناخية جذرية في أنحاء العالم.

كما أن التلوث الغذائي الذي نتج عن استخدام العلف المركز بإضافة اليوريا أو الأمونيا المصنعة من جيف الحيوانات بات يقلق العالم من جراء نتائجه الوخيمة، وما أمراض جنون البقر، وأمراض الماشية التي أرعبت وترعب العالم اليوم إلا من جراء ذلك[١].

إن مشكلة تلوث البيئة من أخطر مشاكل العصر حيث تنادت المنظمات المحلية والدولية والحكومات والجمعيات الأهلية إلى وضع تشريعات تحد من هذه المشكلة الخطيرة.

---

(١) جاسم محمد الجندول (٢٠٠٠م)، الأمراض المشتركة بين الحيوان والإنسان، مجلة أبقار وأغنام ٢٠٠٠م، العدد ٢٥، ص ٤-٨.

ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث وسبب اختياره، وذلك لمعرفة موقف الإسلام من هذه المشكلة الخطيرة عالمياً ومحلياً، ودوره في معالجتها. وهذا البحث بدوره يظهر خصيصة من خصائص الإسلام أنه دين الرحمة، والإنسانية، وأنه شامل لجميع نواحي الحياة، صالح لكل زمان ومكان.

وإسهاماً منّا في لفت الأنظار إلى معالجة الإسلام لموضوع التلوث وكيف يحافظ الإسلام على التوازن البيئي، أقدم هذا البحث حسب الخطة التالية:

- **المقدمة:** وتشتمل على أهمية المشكلة محلياً وعالمياً وسبب اختيار البحث.
- **المطلب الأول:** ويبحث في مفهوم البيئة وأقسامها.
- **المطلب الثاني:** ويبحث في مفهوم التلوث لغة واصطلاحاً والفساد والمؤيدات الشرعية.
- **المطلب الثالث:** سبب التلوث والمؤيدات الشرعية لحماية الإنسان والأرض منه.
- **المطلب الرابع:** المؤيدات الشرعية لحماية البيئة من التلوث.
- **المطلب الخامس:** القواعد الشرعية للمحافظة على البيئة وحمايتها من التلوث.
- **المطلب السادس:** قاضي الحسبة ودوره في تنفيذ المؤيدات الشرعية.
- **الخاتمة:** وتتضمن النتائج والتوصيات.

مشكلة الدراسة وأهدافها:

تدور هذه الدراسة حول مشكلة تلوث البيئة وأسبابها، حيث أصبحت قضية تلوث البيئة وحمايتها والمحافظة عليها من مختلف أنواع التلوث واحدة من أهم قضايا العصر، وبعداً رئيساً من أبعاد التحديات التي تواجهها البلاد النامية خاصة في التخطيط للتنمية في ضوء التجارب التي خاضتها البلاد المتقدمة والمشاكل البيئية التي تحاول أن تجد لها الحلول الممكنة.

وتهدف هذه الدراسة إلى التعرف على كيفية المحافظة على التوازن البيئي، وحماية البيئة من التلوث من خلال المنهج الإسلامي المتمثل في التوجيهات والإرشادات والضوابط والقيم والتشريعات التي استنبطها الفقهاء والعلماء من أصول الإسلام، والتعرف على المؤيدات الشرعية التي وضعها الإسلام للمحافظة على البيئة من التلوث ومنع أسبابه.

كما تهدف الدراسة إلى التعرف على مدى اهتمام الإسلام بقضايا البيئة وعلى الدور الذي يلعبه الإسلام بالنسبة لمعالجة مشكلاتها، وذلك من خلال تتبع النصوص الواردة في القرآن والسنة، والقواعد الكلية، وتصرفات ولاة الأمور من السلف الصالح، وإبراز الأحكام والتشريعات العملية التي وضعها الإسلام لمعالجة قضايا البيئة، مثل نظام الحسبة، وتحديد دور وواجبات كل من الدولة المسلمة والفرد المسلم تجاه هذه القضايا.

المطلب الأول

مفهوم البيئة وأقسامها:

أ – **البيئة لغة:** اسم مشتق من الفعل باء يبوء، أي رجع، وبوأ المنزل: أعده، قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾[١] **وتبوأ المكان:** نزله وأقام به. قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾[٢] أي الذين اتخذوا المدينة منزلاً ومسكناً... والتبوء: التمكن والاستقرار، والبيئة: المنزل[٣].

ب – **البيئة اصطلاحاً:** البيئة مصطلح معاصر، لم يظهر إلا مع ظهور الفكر البيئي الذي هو وليد العصر الحديث، ويبدو أن لفظ البيئة يقترب من لفظ (Ecology) اللاتيني الذي يعني الدراسة العلمية لعلاقات الكائنات الحية بوسطها الطبيعي. فهذه الكلمة مشتقة من اللفظ الإغريقي اويكوس (Oikos) ومعناه: منزل، ومنها: لوغوس (Logos) ومعناه: علم. ولا نستبعد أن يكون العلماء الذين وقع اختيارهم على مصطلح "البيئة" للتعبير عن هذا العلم الجديد في اللغة العربية قد استوحوه من المعنى الذي يحمله تركيب اللفظ اللاتيني. فكما أن (Oikos) تعني منزل، وكذلك البيئة في العربية تعني المنزل.

وقد اتخذ معنى يتناسب مع هذا الفكر، حيث أن مصطلح البيئة أطلقه العلماء على "مجموع الظروف والعوامل الخارجية التي تعيش فيها الكائنات الحية، وتؤثر في العمليات الحيوية التي تقوم بها "[٤].

---

(١) العنكبوت آية، ٥٨.
(٢) الحشر، آية ٩.
(٣) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، دار الحديث للطبع والنشر ٠ بيروت، ص ٧٥.
(٤) د. عبد الهادي النجار، الإسلام والاقتصاد، سلسلة عالم المعرفة، (٦٣)، ١٩٨٣م، الكويت.

وقد عرف علم البيئة الحديث (Ecology) البيئة بأنها: (الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان، بما يضم من ظاهرات طبيعية وبشرية يتأثر بها ويؤثر فيها)[١]، وقد أوجز إعلان مؤتمر البيئة في استكهولم عام ١٩٧٢م مفهوم البيئة بأنها كل شئ يحيط بالإنسان.

وفي ضوء ذلك فإن مفهوم البيئة يعني – تحديداً – الإطار الذي يعيش فيه الإنسان، ويحصل منه على مقومات حياته من غذاء وكساء ودواء ومأوى، ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني البشر.[٢] لا بل إن البيئة هي كل ما يحيط بالإنسان من كائنات حية وأشياء غير حية، بشرط أن يؤثر فيها أو يتأثر بها، أو يكون بينهما تأثير وتأثر.

والنظام البيئي وحدة بيئية متكاملة، تتكون من كائنات حية، ومكونات غير حية في مكان معين، يتفاعل بعضها مع بعض، وفقاً لنظام دقيق ومتوازن في ديناميكية ذاتية، لتستثمر في أداء دورها في إعالة الحياة. ولذلك يطلق على النظام البيئي من هذا المنطلق– نظام إعالة الحياة.[٣]

ونستطيع من خلال هذا المفهوم الشامل للبيئة أن نقسمها إلى قسمين مميزين هما: البيئة الطبيعة، والبيئة الاصطناعية (البشرية):

البيئة الطبيعية: هي (كل ما يحيط بالإنسان من ظاهرات أو مكونات طبيعية حية وغير حية من خلق الله سبحانه وتعالى، ممثلة في مكونات سطح

---

(١) محمد عبد القادر الفقي،البيئة مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث،رؤية إسلامية،مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع،القاهرة،١٩٩٣، ص١٠.

(٢) د. علي المكاوي، البيئة والصحة، دراسة في علم الاجتماع الطبي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٥، ص١٧–١٨.

(٣) محمد عبد القادر الفقي، البيئة ومشكلاتها، مرجع سابق، ص ٢٢، القصاص، محمد عبد الفتاح (١٩٩٨م)، الإنسان والطبيعة والتكنولوجيا، ورشة عمل شبه الإقليمية حول إعداد إدارة الجمعيات الطبيعية وحماية ورشة التراث الطبيعي، قاعة الصاقة، الخرطوم، ٢١–٢٢ مارس ١٩٩٧، عياد، د. محمد عبد الجواد، الاستقرار والتوازن في المنظومة البيئية، مجلة التربية، ع٩٥، ديسمبر، ١٩٩٠، قطر، ص ٢٢٠.

الأرض من جبال وهضاب وسهول ووديان وصخور وتربة، وعناصر المناخ المختلفة: من حرارة وضغط ورياح وتساقط أمطار وأحياء برية النشأة نباتية كانت أو حيوانية: برية كانت أو مائية، إضافة إلى موارد المياه العذبة والمالحة)[١]. وهذه تشمل الموارد الدائمة: كالشمس والهواء والماء والموارد المتجددة: كالحيوان والنبات والتربة، والموارد غير المتجددة (الناضبة): كموارد الوقود الحفري (النفط، الغاز الطبيعي، والفحم الحجري) والثروات المعدنية (كالذهب والفضة والحديد والنحاس).

البيئة الاصطناعية: وهي تلك التي يشيدها الإنسان من خلال تفاعله مع بيئته المطبوعة "الطبيعية" كالمصانع والسيارات وما شيد من منشآت.

ويجب أن نؤكد هنا على أن البيئة المطبوعة ليست فقط مجرد موارد يتجه إليها الإنسان ليستمد منها مقومات حياته، لأنها تشمل علاقات الإنسان الثلاث التي تنظمها التشريعات السماوية، أو التشريعات الوضعية، أو العادات والأعراف، أو القيم والتقاليد السائدة في المجتمع، أو كل ذلك معاً[٢]، وذلك لأن الإنسان يكيف سلوكه في الحياة بحسب مفاهيمه عنها، وتشكل هذه المفاهيم نمط حياته وتضبط علاقاته بغيره.

ولعل هذا التوافق بين المعنى اللغوي للكلمة والمعنى الاصطلاحي هو الذي رجح توظيف مصطلح " البيئة" لقربه من المفهوم الحديث[٣]. كما لا يستبعد أن يكون قد استلهم من بعض الاستعمالات التراثية، حيث تذكر بعض

---

(١) د. زين الدين عبد المقصود، البيئة والإنسان رؤية إسلامية، ص١٣، دار البحوث العلمية، قضايا البيئة من منظور إسلامي، م.بدوي محمود الشيخ،ص٢٤،الدار العربية للنشر، ط١، ٢٠٠٠م.

(٢) محمد الفقي، ص١٨، مرجع سابق.

(٣) النجار، عبد المجيد، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مركز البحوث والدراسات، الدوحة، قطر، ط١، ص٢١.

المصادر التاريخية أن ابن عبد ربه قد استعمل في كتابه "الجمانة" لفظ البيئة، ليدل به على الوسط الطبيعي والثقافي الذي يعيش فيه الإنسان[١].

وانطلاقاً من هذا المعنى اللغوي الذي يحمل شبهاً قوياً بالمعنى الاصطلاحي الحديث وضع لفظ البيئة ليقابل المصطلح الأجنبي (ENVIRONMENT) بالإنجليزية أو الفرنسية وقد استخدمه العالم الفرنسي سانت هيلر عام ١٨٣٥ قاصداً به التعبير عن المحيط الذي تعيش فيه جميع الكائنات الحية، مع التأكيد على العلاقة الوطيدة التي تربط هذه الكائنات[٢] –بما فيها الإنسان– بهذا المحيط الذي تستمد منه وجودها من خلال علاقة التأثير والتأثر المتبادلة.

وأصبح مصطلح البيئة متداولاً في جميع الدراسات التي تهتم بهذا المجال منذ أن بدأ الفكر الإسلامي يسهم بنصيب فيه، غير أن مفهومه لم يستقر منذ ظهوره على تعريف واحد جامع مانع، بل ظل يتغير تبعاً للتغيرات التي تطرأ على الدراسات البيئية التي ما فتئت تتسع وتتشعب، خاضعة للحركة المستمرة التي تعرفها الأبحاث العلمية التي تتمخض كل يوم عن اكتشافات جديدة، وتتوصل إلى قوانين علمية وحقائق كونية كانت مجهولة من قبل.

وبهذا فالبيئة تشمل الجانبين المتقدمين الطبيعي والاصطناعي[٣].

---

(١) الفقي، محمد عبد القادر، البيئة مشاكلها وقضاياها، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ١٩٩٣، ص٩.

(٢) النجار، عبد المجيد، ص٢٠، مرجع سابق.

(٣) المرجع السابق.

المطلب الثاني

في مفهوم التلوث والفساد والمؤيدات التشريعية

أولاً: التلوث لغة:

لوث الشيء بالشيء: أي خلطه به وَمَرَسَهُ. ويقال: لوث الماء: أي خلطه بغيره، أو لوث التراب أي خالطه بشيء خارج عنه.

ويقال: لوث الثوب بالطين أو العجين إذا لطخه به. ويقال للمختلط عقله به لوث، أي خالط عقله شيء من العته أو الجنون[١].

التلوث اصطلاحاً:

له تعريفات عدة منها:

١ – (إفساد المكونات البيئية، حيث تتحول هذه المكونات من عناصر مفيدة إلى عناصر ضارة (ملوثات) بما يفقدها دورها في صنع الحياه)[٢].

٢ – (إدخال الإنسان – بطريق مباشر أو غير مباشر – لمواد أو لطاقة في البيئة، والذي يستتبع نتائج ضارة على نحو يعرض الصحة الإنسانية للخطر، ويضر بالموارد الحيوية وبالنظم البيئية وينال من قيم التمتع بالبيئة أو يعوق الاستخدامات الأخرى المشروعة للوسط)[٣].

٣ – (التغير الذي يحدث بفعل التأثير المباشر وغير المباشر للأنشطة الإنسانية في تكوين حالة الوسط على نحو يخل ببعض الاستعمالات أو الأنشطة التي كان من المستطاع القيام بها في الحالة الطبيعية لذلك الوسط)[٤].

---

(١) لسان العرب ٥/ ٥٣٥، مادة لوث.

(٢) زين الدين عبد المقصود، البيئة والإنسان رؤية إسلامية، ص ١١١.

(٣) سحر مصطفى حافظ، التنمية الصناعية والحماية التشريعية للبيئة من التلوث، ورقة مقدمة إلى المؤتمر الدولي الخامس عشر للإحصاء والحسابات العلمية والعلوم، دار البحوث العلمية الاجتماعية، مرجع سابق، ص٨.

(٤) سلامه، د. أحمد عبد الكريم، قانون حماية البيئة الإسلامي مقارنة بالقوانين الوضعية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٦–١٩٩٦، ص٢٨.

ولعل أشمل هذه التعريفات وأدقها هو: كل تغير كمي أو كيفي يلحق بأحد الموارد الطبيعية في البيئة كالهواء: والماء أو الغذاء أو التربة فيغير من خصائصه،أو يخل بتوازنه بدرجة تؤثر في الكائنات الحية التي تستخدمه – وفي مقدمتها الإنسان – تأثيراً غير مرغوب فيه. وهذا التغير يحصل من الطرح المقصود أو العارض من جانب الإنسان، أو البيئة المطبوعة للنفايات بأنواعها وأشكالها المختلفة، أو وجود مادة أو طاقة أو كائن حي في غير مكانه المناسب وبغير كميته المناسبة.

أما أنواع الملوثات فهي عديدة إذا أضفناها على أساس النشأة أو على حسب المسببات، ففي ضوء النشأة تنقسم إلى:

١ – ملوثات طبيعية: وهي التي تنتج عن مكونات البيئة ذاتها، دون تدخل الإنسان كالغازات والأتربة التي تقذفها البراكين.

٢ – ملوثات مستحدثة وهي التي تتكون نتيجة لما استحدثه الإنسان في البيئة من تقنيات، وما أبتكره من اكتشافات مثل التي تنتج عن الصناعات والتفجيرات النووية ووسائل الاتصال والمواصلات.

وعلى حسب المسببات، تنقسم الملوثات إلى:

١ – ملوثات بيولوجية وهي الأحياء التي توجد في مكان أو زمان أو كم غير مناسب، فإنها تسبب المرض للإنسان والنبات والحيوان، أو تتلف منشآت أقامها الإنسان مثل الفيروسات والبكتيريا، التي تنتشر أنواعها في الماء والهواء وتسبب الأمراض للكائنات الحية.

٢ – ملوثات كيميائية: وهي مثل الغازات المتصاعدة من الحرائق والمصانع والسيارات والبراكين والمبيدات بأنواعها، وكذلك الجسيمات الدقيقة التي تنتج من مصانع الاسبستوس والكيماويات السائلة التي تلقي آثارها السلبية على جميع عناصر البيئة ومكوناتها، مما يضر الكائنات الحية جميعها في الهواء الذي تستنشقه والماء الذي تشربه، والطعام الذي تأكله[١].

---

(١) د. علي المكاوي، الآثار الصحية المترتبة على التلوث البيئي داخل المصنع وخارجه، ورقة مقدمة إلى المؤتمر الدولي الخامس عشر للإحصاء والحسابات العلمية والعلوم

٣ – ملوثات فيزيائية: ومنها الضوضاء وما يتخلف عن المفاعلات النووية التي تشكل خطراً جسيماً على الإنسان، فهي تسبب أمراض السرطان، وتتلف النظام العصبي المركزي للإنسان، وتتلف المخ. وتسبب العقم، وموت الأجنة، وتضر بالجهاز التناسلي للجنين، وتحدث التشوهات الخلقية، وتصيب رئتي الإنسان وكبده وكليته.

وتمثل الملوثات الفيزيائية بشكل واضح الضجيج، أو ما يسمى بالتلوث السمعي، وهي إحدى سمات التمدن ونمو المدن، والتلوث السمعي ملازم لهواء الطبقات الدنيا في الكتلة الجوية، ويقاس عادة بوحدة ديسبيل Decibel التي تقيس التفاوت في الشعور بين شدة صوتين، ويتراوح الصوت بين التنفس العادي (١٠ دسيبيل)، وصوت انطلاق الطائرة النفاثة (١٢٠ دسيبيل)[١]، وإن أدنى مستوى للصوت صفر، وإذا بلغ (٨٥ ديسيبل) فقد يؤثر على الشعيرات التي تنقل الصوت إلى المخ، ويتساوى التأثر بالضوضاء المستيقظ والنائم، فالأصوات المزعجة تؤدي إلى عدم استقرار النائم في نومه، وتضعف قدرة الإنسان المستيقظ على التركيز الذهني، فيقل الإنتاج وتزيد الأخطاء[٢].

٤ – التلوث العقدي والتشريعي والأخلاقي: ويتمثل ذلك في السياسات البيئية غير الحكيمة والقرارات البيئية غير المسؤولة. فبدلاً من أن تتحمل الدول

الاجتماعية، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة ٨–٢١، مارس، ١٩٩٠، ص٧، وسحر مصطفى حافظ، التنمية الصناعية والحماية التشريعية للبيئة من التلوث، ورقة مقدمة إلى المؤتمر الدولي الخامس عشر للإحصاء والحسابات العلمية والعلوم الاجتماعية، ص ٨.

(١) د. سعيد الحفار، التلوث البيئي، الكيميائيات عامة والمسرطنات منها خاصة، ورقة مقدمة إلى ندوة البيئة وحمايتها من التلوث، مكتب التربية العربي، الكويت، ٢٥–٢٨ اكتوبر ١٩٨٦م، ص ١٦١، وبيئة من أجل البقاء، للمؤلف، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدوحة، ١٩٩٠م، ص ٢٩٣.

(٢) عادل فهمي بدر، القرآن والسنة وتحذير السماء من تلوث البيئة، ص٢٠، ورقة مقدمة إلى المؤتمر العلمي الثاني لكلية الشريعة بعنوان (قضايا البيئة من منظور إسلامي) المنعقد ما بين ٢١–٢٣ / ١١ / ٢٠٠٠م.

الصناعية مسؤولية هذا التلوث والتي لها نصيب الأسد في تلويث البيئة واستنزافها، حرصت على تحميل الدول المنتجة للنفط أعباء وتكاليف معالجة الاختلالات البيئية، بإصرارها على فرض ضريبة على كل برميل نفط تنتجه هذه الدول، مع ان الدول المنتجة للنفط في غالبيتها غير صناعية ولا تسبب تلويث البيئة واخلال توازنها.

ويظهر هذا الارتباط الواضح بين مفهوم الفساد ومفهوم التلوث من خلال تعريف الفساد.

ثانياً: الفساد لغة:

يقال: فسد الشيء يفسد فسادا أو فسودا فهو فاسد وفسيد، والمفسدة ضد المصلحة، والفساد ضد الصلاح.

ويقال: فسد اللحم واللبن فساداً: أنتن وأعطب. ويقال: فسد العقد: بطل، وفسد الرجل: جاوز الصواب والحكمة، وفسدت الأمور: اضطربت وأدركها الخلل. فالفساد هو: التلف والعطب، والاضطراب، والخلل، والقحط، وفي التنزيل العزيز ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1] وإلحاق الضرر وما يؤدي إلى الفساد من لهو ولعب ونحوها)[2]، وقد عرف الراغب الأصفهاني الفساد بأنه خروج الشيء عن الاعتدال قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة[3].

وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تتحدث عن الفساد الذي أحدثه الإنسان في الكون وفي نفسه وفي الحياة.

---

(١) الروم، الآية (٤١).
(٢) لسان العرب (مادة: فاء) المعجم الوسيط ٦٨٨/٢.
(٣) الأصفهاني، الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص٣٩٣، تحقيق نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي – بيروت.

ويحفل القرآن الكريم بالكثير من الآيات التي تؤكد على أن الله هو وحده خالق البيئة ومنظمها، وهو الذي وضع النواميس التي تكفل حفظ التوازن البيئي قال تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ..إلخ﴾[1]

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[2].

وقال: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾[3].

إن الله تعالى خلق كل شيء بقدر قال تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾[4] ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾[5] والقدر هو ذلك النظام الذي وضعه الله للمخلوقات قبل خلقها وأجراها عليه، فكل شيء عنده بمقدار بحسب علمه وحكمته سبحانه وتعالى، فهو وحده الذي يعلم بأن هذا القدر كما حدده سبحانه وتعالى هو الذي يكفل لأي مكون أو عنصر من عناصر هذه البيئة أن يؤدي دوره المحدد والمرسوم له في صنع الحياة بانسجام بديع ونظام دقيق لا يتعداه ولا يخرج عليه قيد أنملة، وفساد البيئة أو تلوثها نقيض صلاحها فقوله تعالى ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[6] ومؤدى ذلك أن المحافظة على الموارد

---

(١) الرحمن الآيات ١-١٠
(٢) البقرة آية ٢٢
(٣) ق الآيات ٦-١١
(٤) سورة القمر،آية ٤٩.
(٥) سورة الفرقان، آية ٢.
(٦) الروم، الآية ٤١.

الطبيعية أصبح أمراً مرتبطاً بحياة الإنسان الذي يعيش على هذه الموارد، وتعني المحافظة على هذه الموارد عدم استغلالها والإسراف عند استعمالها أو استنزافها.

ويمكن تلخيص مظاهر سوء استخدام الموارد الطبيعية بإتلاف التربة الزراعية وتدميرها، واستنزاف المصادر المائية وتلويثها، واستنزاف المعادن، وإبادة الغابات وحرقها، وعدم حماية الحيوانات البرية، وإقامة المدن والمجتمعات في غير أماكنها الصحيحة، وتلوث الهواء بمختلف الوسائل، وتدمير المناطق الجميلة، والاختيار غير العلمي للمناطق التي تستزرع أو تستصلح، وتخلف الإنتاج بشتى صوره عن المتطلبات الأساسية للإنسان(١).

المؤيدات الشرعية:

ثانياً: معنى المؤيدات لغة: التأييد: مصدر أيّد، أي قوّى، وأيّد الرجل: اشتد وقوي وبابه باع، وأيده تأييداً: أي قواه، والفاعل منه: (مؤيَّد)(٢).

قال تعالى ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾(٣)أي قوينا، وقال: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾(٤) أي قويناه وأيده على الأمر قواه،وهو من الأيد بمعنى القوة،قال تعالى ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾(٥) أي بقوة. ومؤيد (بكسر الياء المشدّدة أي: (مقوي)(٦).

وفي الاصطلاح: هي الأحكام الشرعية التي تحمل الناس على طاعة أحكام الشريعة الأصلية. ويقصد بالأحكام الأصلية: نظام الشريعة المحقق للمصالح

---

(١) النجار، د. عبد الهادي، الإسلام والاقتصاد ص ٢٣٤، مرجع سابق.
(٢) محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح،ص٣٥، منشورات دار أسامه، ط١٩٨٣ – بيروت.
(٣) الصف، آية ١٤.
(٤) البقرة، آية ٨٧.
(٥) الذاريات، آية ٤٧.
(٦) لسان العرب، ٥/ ٨٥، طبعة دار الحياة، بيروت.

والعلاقات والمعاملات[1]. ونلاحظ العلاقة بين المعنيين اللغوي والشرعي فحماية الشريعة تقوية لها وتأييد.

أنواع المؤيدات:

قسم العلماء المؤيدات الشرعية إلى قسمين رئيسيين:

الأول: مؤيدات ترغيبية: وهي الأحكام التي تثير في الناس الشوق والرغبة إلى فعل الشيء، وتنشيطهم لتحمل المكاره في سبيلها، وتقديم المكافآت لتشجيعهم على فعلها وهي قسمان:

أ – أحكام تشويقية إرشادية، وترغيبات أخروية، تدعو الناس إلى أعمال الخير واتباع الأخلاق الفاضلة، وإيثار المصلحة العامة على الخاصة، وتوضح ما للنفس والدين والعقل والدماء والأعراض والأموال، من حرمة عظيمة في الإسلام، وتقدير كبير يدعو إلى المحافظة عليها وصيانتها.

ب – أحكام ترغيبية تنظيمية مثل فرض الخراج على الأرض بقدر طاقتها، وزراعة الأرض بما تصلح له، ومنع إلقاء النجاسات في الماء والنهي عن الضوضاء والإزعاج بتشريع أحكام الاستئذان، والنهي عن رفع الصوت ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[2] حتى أمر الله تعالى بأن لا يجاهر بالقرآن أثناء الصلاة ولا يخافت به ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[3].

الثاني: مؤيدات ترهيبية وهي قسمان:

أ – تأديبية: وهي الأحكام التي يقصد بها زجر الناس عن مخالفة أوامر الله ونواهيه وهي العقوبات المشروعة للزجر عن ارتكاب الجرائم وهي أنواع:

---

(١) مصطفى الزرقا، المدخل الفقهي، ٥٩٦/٢، والخياط، د. عبد العزيز، المؤيدات التشريعية، ص١٨، نظرية العقوبات، دار إسلام للطباعة، ط٢، ١٩٨٦م.

(٢) لقمان، آية ١٩.

(٣) الإسراء، آية ١١٠.

بدنية ومالية، وحاجزة للحرية، ومعنوية كالتشهير.

ب – حقوقية مدنية: وهي ما يرتبه الشارع على مخالفة نظام المعاملات من سلب نتائجه كلها، أو بعضها، وذلك بأن تعتبر المعاملات باطلة أو فاسدة، إذا كان الإلغاء في أمر جوهري أو وصف أو متوقفة إذا توقف التصرف فيها على إذن الغير[1].

وإذا طبقنا معنى المؤيدات وأقسامها على موضوع المحافظة على التوازن البيئي ومنع التلوث أي الفساد نجد أن الإسلام استخدم المؤيدات جميعها لتحقيق هذه الغاية.

(١) الخياط، د. عبد العزيز، المؤيدات التشريعية (نظرية العقوبات)، ص١٨، دار السلام للطباعة، والنشر، ط٢، ١٩٨٦ م.

المطلب الثالث

سبب التلوث ومصادره من منظور إسلامي

أولاً: سبب التلوث البيئي ومصادره:

يرى علماء البيئة أن للتلوث مصدرين:

١ – طبيعي: كالغازات والأبخرة التي تقذفها البراكين، ونحو ذلك مما ينتج من مكونات البيئة دون تدخل الإنسان.

٢ – مستحدث: كالملوثات الاصطناعية، وما يتخلف عن المدن من قمامة وفضلات، ونحوها مما كان من فعل الإنسان(١).

أما المصدر الأول وهو سبب من أسباب التلوث إلا أنه يحافظ على التوازن البيئي، وذلك من خلال التعرف على دورة الكربون في الطبيعة مثلاً، وذلك لأن غاز ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء في الغلاف الجوي هما المسؤولان عن حفظ درجة حرارة الأرض، والإبقاء على الكائنات ذاتية التغذية الضوئية (النباتات الخضراء) والتي تتغذى على الكربون في صورته الموجودة عليها في الغلاف الجوي (ثاني أكسيد الكربون). وهذا البخار هو ناتج إخراجي من عمليات تنفس الكائنات الحية ومن حركة البراكين التي بحرارتها تحلل الماء وتذيب الصخور، وتحدث عمليات إحراق، حيث يعود ثاني أكسيد الكربون إلى الغلاف الجوي ثانية.

أما السبب الثاني وهو الإنسان وهو السبب الرئيس في التلوث وإحداث الخلل في التوازن البيئي عن طريق الاستخدام غير الرشيد والأمثل لمكونات النظام البيئي حوله(٢).

---

(١) بيئة من أجل البقاء، د. سعيد الحفار، دار الثقافة، قطر، ط/ ١٤٠١هـ.

(٢) تلوث البيئة وتحديات البقاء، د. يسرى دعبس، سنتر للنشر والتوزيع، الاسكندرية، ١٩٩٩م.

ويتفق الإسلام مع هذه النظرة في أن سبب التلوث هو الفساد والذي يتمثل في انحراف الإنسان عن الحق ومجاوزة الحد المشروع، وذلك بإنكار وجود الخالق المدبر وانحرافه عن المعتقد الصحيح، والمنهج الصحيح الذي يريده الله في هذه الأرض، وهذا هو السبب في حصول التلوث بقسميه المادي وغير المادي، وهو السبب في حصول الكوارث، وفي نزول العذاب الذي يصحب بتلوث بيئي، قال تعالى ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[1].

ويقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[2]، وقد حذر القرآن الكريم من إفساد الأرض بعد إصلاحها من قبل خالقها حيث مهدها وهيأها واستخلف فيها الإنسان ليعمرها وفق أوامره ونواهيه قال تعالى ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[3] وقال تعالى ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[4] وقال تعالى ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[5].

أن التلوث البيئي المدمر للحياة والسائر بها إلى الفناء، إنما يكمن في السلوك الشائن الذي يسلكه الإنسان في أنماط الإنتاج والاستهلاك، والمعرفة. وسلوك الإنسان محكوم بالأفكار والمفاهيم السائدة، وبناءً على ذلك فإن مشكلات التلوث البيئي التي تجتاح الأرض اليوم، وغيرها من مشكلات والتي أقضت مضاجع البشر في هذا العصر، ليست مشكلات أفرزها التقدم العلمي، وما نجم عنه من تجارب علمية وصناعات متنوعة، وإنما هي مشكلات تضرب جذورها في أعماق الثقافة الغربية وحضارتها، فهي ثقافة وحضارة مهلكة

(١) الروم، آية ٤١.
(٢) الشورى، آية ٣٠.
(٣) الأعراف، آية ٥٦.
(٤) البقرة، آية ٦٠.
(٥) القصص، ٧٧.

مدمرة، لأنها تقوم على أساس مادي علماني تجرد الإنسان من القيم الرفيعة والمثل العليا السامية، بمعاداتها للدين وربط السلوك بمفهوم المنفعة القائم على أساس مادي بحت، وهو أن النافع: كل شيء مرغوب ويشبع حاجة ويدفع به ثمن، بغض النظر عن ضرره ونفعه على الأفراد والمجتمعات، وهذا جهل للكينونة البشرية، وجهل في فهم الوجود، فيظل الإنسان تائهاً حائراً مضطرباً، ساعياً في الأرض فساداً وإفساداً من جراء اتباع الشهوات، وتأليه الأهواء البشرية في طرائق الإنتاج والاستهلاك، وطراز العيش في العلاقات والنظم وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً.

ثانيا: منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة:

إن التوازن البيئي هو أهم ما يميز البيئة والنظام البيئي وهو محور التثبت لأجزاء النظام البيئي، وعنصر الترابط والاستدامة والصلاحية فيه.

والأنظمة البيئية متوازنة بطبيعتها ما لم يطرأ عليها طارىء، فهي متوازنة بذاتها داخلياً، ومتوازنة خارجياً مع باقي الأنظمة والعناصر البيئية بشكل دقيق ومتكامل.

ويتلخص منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة في الركائز التالية:

الركيزة الأولى: التقدير بمعنى أن البيئة خلقت بدقة، وتبرز هذه الصورة وتتجلى في خلق المواد والعناصر بمقادير محدودة ونسب دقيقة وخلق كل شيء بقدر وحساب، قال تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[1] أي أن الله خلق كل شيء بقدر محدود، وقال أيضاً ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[2] وقال عز وجل ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[3] وقال تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[4].

---

(١) القمر، آية ٤٩.
(٢) الرعد، آية ٨.
(٣) الفرقان، آية ٢.
(٤) الحجر، آية ٢١.

إن النظام البيئي الذي خلقه الله وقدره وحدة بيئية متكاملة، تتكون من كائنات حية ومكونات غير حية في مكان معين، يتفاعل بعضها مع بعض وفق نظام دقيق ومتوازن في ديناميكية ذاتية، لتستمر في أداء دورها في إعالة الحياة. ولذلك يطلق على النظام البيئي –من هذا المنطلق– نظام إعالة الحياة[١]، ويتكون أي نظام بيئي من أربع مجموعات من العناصر أو المكونات، وهي: عناصر الإنتاج، وعناصر الاستهلاك، وعناصر التحلل، والعناصر الطبيعية غير الحية[٢]. وهذه العناصر تجسد حالة التوازن الواضح بين مكونات كل منها، وكل نظام منها يمثل بيئة منفصلة ومتوازنة: كالبحار والغابات والبحيرات. وإذا حدث تغير في الظروف المحيطة بنظام بيئي، فقد يتغير في الشكل، إلا أن البيئة التي تحتوي على تنوع من النباتات والحيوانات، تقاوم هذه التغيرات وتحاول الحفاظ على توازنها، ألا يدل ذلك على دقة الخلق وحكمة الخالق وقدرته سبحانه؟ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[٣].

الركيزة الثانية: البيئة خلقت متوازنة: إن هذه البيئة خلقت على نظام بديع متوازن متكامل العناصر، لا يطغى فيها عنصر على عنصر، ولكل عنصر وظيفته يؤديها دون أن يظلم منها شيئاً. وهذه القاعدة مقررة في كثير من الآيات، نذكر منها قوله تعالى ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾[٤]. وقوله تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾

(١) محمد عبد القادر الفقي، البيئة، مرجع سابق، ص ٢٢.
(٢) د. أحمد مدحت إسلام، التلوث مشكلة العصر، العدد ١٠٢، من سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، أغسطس، ١٩٩٩، ص ٩–١٠.
(٣) الفرقان، آية ٢.
(٤) الآيات ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢ من سورة الحجر.

وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾[1]

ومن صور التوازن التي خلق الله سبحانه وتعالى البيئة عليها: ثبات كمية الماء على سطح الأرض، حيث تشكل هذه الكمية ٧١,١٪ من سطح الأرض ثم تعود إليه مرة ثانية، ومعلوم أن بخار الماء المتصاعد من البحار والمحيطات تحمله الرياح فيتكاثف، ويلقح بواسطتها بإحداث تفريغ كهربائي، فيبدأ هطول المطر لتفيض الأنهار والأودية، قال تعالى ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾[2]. وقد يستقر ويصبح مكنزاً تحت الأرض، مكوناً مياه جوفية، فإذا نزل الغيث شرب منه كل كائن حي على الأرض، كما تشرب منه الأرض نفسها، ولا يمكن التحكم بالأمطار؛ لأنه بعد ذلك يتسرب من الأحياء والأرض إلى البحر مرة أخرى، فتبدأ الدورة ثانية، وهكذا دواليك، ومن هنا يتبين لنا معنى الآية ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾[3] إذ أننا لا نستطيع منعه من النزول ولا الصعود إلا على هيئة بخار ماء. وإن كل ما تفقده الأرض من ماء على هيئة بخار سرعان ما ترده إليها السماء كاملاً ثانية في صورة أمطار. قال تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾[4]، وقال عزوجل ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[5]، وقال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم

(١) سورة النبأ، الايات من ٦– ١٦.
(٢) الرعد، آية ١٧.
(٣) الحجر، آية ٢٢.
(٤) المؤمنون، آية ١٨.
(٥) الزمر، آية ٢١.

مَّآءً فُرَاتًا﴾[1]، ويتجلى التوازن البيئي بأجمل صورة في نظام الدورات للعناصر والمواد التي سبق ذكرها.

الركيزة الثالثة: الحماية، بمعنى أن البيئة خلقت محفوظة، وهي أنظمة الحماية، إلا أنه لا بد لكل ناموس ونظام من أنظمة البيئة من نظام حماية؛ ليضمن استمرار هذا النظام ويحافظ عليه من التدخلات الخارجية التي تخل بهذا النظام.

فأي مادة أو نظام لا بد لها من إجراءات حماية وإجراءات وقاية وإجراءات دفاع تحفظها من الخلل والنقص والتلف والانهيار وتطفل الأعداء، وتضمن لها القيام بدورها وواجبها في هذا الكون بكل دقة واقتدار. قال تعالى ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[2]، وقال أيضاً ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[3]، ومن الأمثلة على أنظمة الحفظ والحماية المختلفة في هذا الكون الواسع: الذرة حيث يوجد في نواتها قوة عجيبة تحفظ مكوناتها من الاندثار والتفتت، وإن أي تفتيت لهذه النواة يطلق تلك الطاقة العجيبة التي يطلق عليها الطاقة.

كما أن الأرض والسماوات محفوظة بحفظ الله، قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾[4]، وقال أيضاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾[5]، فالله حفظ النجوم والكواكب بمواقعها، حتى لا يرتطم بعضها ببعض، فقد حفظ الأرض بأنظمة حماية وحفظ عجيبة، وأول هذه الأنظمة هي اتزانها وثباتها في مدارها بواسطة قوة جذب الشمس وقوة الطرد المركزي الناتج عن الدوران، وقوى الجاذبية الأخرى، وجميع هذه القوى تضمن ثبات

---

(١) المرسلات آية ٢٧.
(٢) سبأ، آية ٢٧.
(٣) هود، آية ٥٧.
(٤) الأنبياء، آية ٣٢.
(٥) فاطر، آية ٤١.

الأرض في مدارها بحيث لا تنفلت أو تتيه في الفضاء. قال تعالى ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[1].

وليست هذه القوى هي النظام الوحيد لحفظ الأرض لأن هناك أخطاراً أقوى تهدد الأرض. فمن أنظمة الحفظ والحماية: الغلاف الجوي للأرض، وهو عبارة عن عدة طبقات من الغازات المختلفة والتي تؤدي أدواراً مختلفة تكون في مجموعها نظام الحماية للكرة الأرضية، حيث تحمي الغيوم والبخار والأكسجين وتقي الغازات من التشتت كما تصفى اشعة الشمس من الأشعة الضارة بواسطة طبقة الأوزون، وكذلك تفتت الأجرام السماوية والنيازك قبل ارتطامها بالأرض، بالإضافة إلى حفظ حرارة الأرض، وعكس الاشارات والأمواج الكهربية والصوتية وحفظها.

ومن صور التوازن البيئي في الأنظمة البيئية: نظام الدورات للعناصر والمواد، إذ أن العناصر في الطبيعة تتعرض للاستهلاك والنقص أو الزيادة والكثرة، مما يعد إخلالاً بالتوازن البيئي والأنظمة البيئية، وغالباً ما تحدث هذه الاختلالات نتيجة عمل الإنسان، وتؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر على النظم البيئية، وقد تكون هذه النظم البيئية حيوانية أو نباتية او الكائنات الدقيقة التي تقيس هذا المدى[2].

الركيزة الرابعة: إن البيئة خلقت للإنسان، فهي مسخرة له، وهو مستخلف فيها، ينعم بخيراتها، ويبتهج بجمالها، وقد هيأ الله تعالى الأرض ومهدها وبسطها؛ ليحقق مفهوم الاستخلاف هذا. قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا﴾[3]، وقال تعالى ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾[4]، وقال عزوجل

---

(١) يوسف، آية ٦٤.
(٢) المفاهيم الأساسية في علم البيئة، د. نايك م. سليت.
(٣) نوح، الآية ١٩.
(٤) الذاريات، الآية ٤٨.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾[١]، قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[٢].

ومظاهر التسخير كثيرة ذكرها القرآن الكريم في آيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[٣]. ففي هذه الآيات عرض للمكونات البيئية الهائلة، ويكثر فيها فعل التسخير أربع مرات، دلالة على كمال قدرة الله وبديع صنعه، ودعوة للإنسان ليشكر النعم الآتية من هذا التسخير، وهو الخليفة في هذه الأرض التي ذللت له. ولا يتمكن الإنسان من ممارسة خلافته في الأرض على الوجه المطلوب إلا لحماية هذه المكونات البيئية المسخرة. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[٤]، وقال عزوجل ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾[٥]، وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[٦]، وقال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٧]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي ربطت مفهوم الاستخلاف بالتسخير والتمهيد والبسط... إلخ.

---

(١) النمل، آية ٦١.
(٢) الملك، الآية ١٥.
(٣) إبراهيم، الآيات ٣٢، ٣٣، ٣٤.
(٤) البقرة، آية ٣٠.
(٥) فاطر، الآية ٣٩.
(٦) الأعراف، الآية ١٠.
(٧) الحج، الآية ٦٥.

غير أن الإنسان أبى إلا أن يفسد في الأرض ويهلك الحرث والنسل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾[1]، وهذا هو التلوث المقترن بالفساد والإفساد.

الركيزة الخامسة: البيئة، ومنها: الأرض ملك لله، والإنسان مستخلف فيها، فهو ينتفع بها، وهي أمانة استودعها الله إياه. قال تعالى ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾[2] وقال تعالى ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]، وقال عز وجل ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[4].

والله تعالى استخلف الإنسان في ملكه، وجعله أميناً على مقدراته، وأوجب عليه أن يتصرف تجاهه تصرف الأمين، فلا يلوث هواءه ولا يدنس ماءه ولا يفسد زرعه... إلخ.

---

(١) البقرة، الآية ٢٠٥.
(٢) الشورى، الآية ٤٩.
(٣) الحديد، الآية ٢.
(٤) الملك، الآية ١.

المطلب الرابع
المؤيدات الشرعية لحماية الأرض من التلوث

إن البيئة موطن الحياة، والأرض موطن الإنسان، فعليها يعيش، ومنها يبني بيئته، ويستخرج غذاءه وماءه ومعادنه والطاقة التي يستخدمها، كما يتنفس هواءها، ويتأثر بجاذبيتها ومناخها.

ويعتمد الإنسان في حياته على البيئة وما فيها من مواد طبيعية، حيث يقوم بتطوير معيشته ومؤسساته الاجتماعية والاقتصادية، فضوء الشمس والهواء والماء والتربة والمعادن تمثل العناصر التي يحيا بها الإنسان ويطور بها حياته من خلال ازدياد فهمه لهذه البيئة. ورغم أهمية هذه الموارد للإنسان، فإن حسن استغلالها وصيانتها أصبح أمراً ضرورياً، بسبب تزايد السكان التدريجي، وعدم كفاية الموارد الاقتصادية المؤهلة لإشباع حاجة الإنسان نفسه، كمورد اقتصادي واجتماعي، ينبغي أن تتم تنميته فكرياً وحضارياً، لكي يتعامل مع البيئة بما يحقق الغاية من وجوده، ويحقق التجانس بينه وبين البيئة لصالح المجتمع ككل[١].

ومؤدى ذلك أن المحافظة على الموارد الطبيعية أصبح مرتبطاً بحياة الإنسان الذي يعيش على هذه الموارد وحسن استغلالها وعدم الإسراف عند استعمالها أو استنزافها.

إن الإنسان يتصرف بتأثير عوامل متعددة من دوافع واتجاهات مختلفة، فإنه مهما شرع من القوانين التي تنظم استغلال الموارد الطبيعية وصيانتها

---

(١) جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مرجع في التعليم البيئي لمراحل التعليم العام، ١٩٧٦. رشيد الحمد، محمد سعيد الصباريني، البيئة ومشكلاتها، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد (٥)، الكويت، مايو ١٩٧٨.

فإن القوانين وحدها لا تكفي لضمان التصرف السليم، فلا بد من اقتران التشريع بمؤيدات ترغب الناس وترهبهم، وإذا لم يلتزموا تعاقبهم على ذلك[١].

ومن هنا شرع الإسلام مجموعة من الأحكام الشرعية، لتحمل الناس على الالتزام بحماية الأرض وعمارتها والمحافظة على توازنها، ويتمثل ذلك بالإرشاد والتوجيه والتشويق ثم العقوبة أخيراً، فقد وجه الإسلام الأنظار إلى أن الأرض خلقها الله تعالى وأودع فيها من الخيرات والخصائص ما تسد حاجات الناس وتحقق كفايتهم، وقد تضمن القرآن والسنة النبوية وعداً صادقاً لبني آدم، إن هم عمروا الأرض بالإحسان وتعهدوها بالإصلاح، وحافظوا على عناصرها من التخريب والتبذير والإفساد، أن تظل هذه البيئة تتفجر بالخيرات وتجود بالأقوات، وتضمن لهم رغد العيش وطيب المقام، لا يخشون فيها جوعاً ولا ضنكاً إلى أن يأذن الله بفناء العالم.

وجاءت الآيات القرآنية مؤكدة تكفل الله بالأرزاق وإرسالها الدائم لضمان كفاية البيئة، حتى يتمكن الإنسان من أداء دوره الاستخلافي وهو آمن لا تلقي به إلى المجهول، إن هو دأب على استثمارها وتنميتها، وتفنن في استغلالها، والاستنفاع بها، قال تعالى ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾[٢] وقال عزوجل ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾[٣].

وقدر الله تنوع مظاهر هذه الكفاية متدرجة مع نشاط الإنسان العمراني، وترقيه في سلم التقدم المادي الذي يفتح له باستمرار أبواباً جديدة للرزق، وتتكشف له موارد غنية للاستنفاع، مما يدل على أن بعض عناصر البيئة القابلة للاستثمار ظاهرة متيسرة للإنسان، بينما بعضها الآخر لا يتمكن الإنسان من

---

(١) المنظمة العربية للتربية والفنون، مرجع سابق، ص ١١– ١٢.
(٢) هود،آية ٦.
(٣) فصلت، آية ١٠.

الاستفادة منها إلا إذا حان الوقت الذي قدره الله لها[١]، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[٢]، وفي قوله عزوجل ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾[٣]، إنه رزق في البيئة موفور في غير نفاد، ولكن بعضه منظور ناجز، وبعضه خفي مقدر ظهوره بأوقات تقتضيها الحكمة[٤].

وإذا تأملنا في هذه التوجيهات يتبين لنا أن الآيات والأحاديث النبوية نبهت إلى أن الأرض يتنوع إنتاجها تبعاً لقدرتها الإنتاجية، فمنها ما يصلح للحبوب، ومنها ما يصلح للشجر، ومنها ما يصلح للمراعي والكلأ، وبناءً على ذلك عالج الإسلام موضوع ملكية الأرض والعمل فيها، أي التعامل معها بما يضمن الإنتاج الزراعي وإنتاج الأعلاف والمحافظة على قدرتها الإنتاجية والحيلولة دون التصحر، وهو من أعظم مظاهر التلوث في الأرض، وقد تنوعت هذه المؤيدات الشرعية حيث شملت الإرشاد والتوجيه والترغيب والترهيب في أمور كثيرة منها:

المؤيد الأول: وهو المؤيد الترغيبي والتنظيمي ويتمثل ذلك بالآتي:

أولاً: ربط الإسلام ملكية الأرض بالإنتاج فمن ينتج يملك ومن لا ينتج لا يملك، وربط حيازة الأرض الزراعية بالإنتاج الزراعي إلى جانب الانتفاع بها في البناء والسكن وما إلى ذلك، وهذا يرغب الإنسان بأن يبذل أقصى طاقته في

(١) النجار، عبد المجيد، قضايا البيئة من منظور إسلامي، ص١٤٠، مرجع سابق.
(٢) الحجر، الآيات ١٩، ٢٠، ٢١.
(٣) الشورى، آية ٢٧.
(٤) النجار، عبد المجيد، ص١٤، المرجع السابق.

عمارة الأرض وزراعتها، والحرص على ذلك حتى لا يفقد ملكيتها بتعطيلها وتخريبها.

قال الإمام أبو يوسف صاحب كتاب الخراج: حدثني بعض أشياخنا من أهل المدينة فقال: اقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم بلال بن الحارث المزني ما بين البحر والصخر فلما كان عمر بن الخطاب قال له: " إنك لا تستطيع أن تعمل هذا، فطيب له أن يقطعها ما خلا المعادن فإنه استثناها "[١].

إن موضوع ملكية الأرض ليس كملكية باقي المواد من عقار وسلع ونقد وغير ذلك، بل الموضوع هو ملكية إنتاج وليس مجرد ملكية فقط.

والإسلام قد شرّع أحكاماً خاصة للأراضي، فجعل الأرض تملك ابتداءً بالشراء وتملك بالإرث، وتملك بالإحياء، وتملك بالتحجير، وتملك بالإقطاع أي توزيع بعض الأراضي من قبل الدولة على الرعية[٢] فهي تملك كباقي الأموال بالشراء والإرث إلا أنها تختلف عن بقية الأموال حيث تملك بالإحياء والتحجير (وهو من الإحياء) وإقطاع الدولة الأفراد الأرض، ولا يوجد مال ولا متاع يملك بهذا غير الأرض، وهذا من المؤيدات الشرعية لإحياء الأرض وكسوتها بالنبات.

وبهذه الأحكام يحافظ على الغطاء النباتي ويحول تطبيق الأحكام هذه دون حدوث التصحر وهو من الملوثات العظيمة لقشرة الأرض، وهذه الأحكام ترغب الإنسان وتدفعه للمحافظة على إحياء الأرض ليحافظ بذلك على ملكيته لها.

ثانياً: رغب الإسلام في إحياء الأرض الميتة وجعل الإحياء سبباً من أسباب تملك الأرض، وهذا يشكل جائزة لمن يقوم بهذا العمل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من أحيا أرضاً ميتةً فهي له " وليس لعرق ظالم حق[٣].

---

(١) أبو يوسف،ص ٦٢، يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، ص ٦٢،القرشي،يحيى بن آدم، كتاب الخراج ص٧٨، دار المعرفة– بيروت.

(٢) المالكي، السياسة الاقتصادية المثلى، ص٥٩، الطبعة الأولى، ١٩٦٣م.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الحرث والمزرعة، ٥/١٣٩، وسنن أبي داود ٢/١٧٨، ومسند أحمد ٥/٢٣٧، وعرق الظالم أي المتعدي والمغتصب.

والأرض الميتة: التي لم يظهر أنه جرى عليها ملك أحد، فلم يظهر فيها تأثير شيء من إحاطة أو زرع أو عمارة أو نحو ذلك، ولا يوجد أحد يملكها. وإحياؤها هو: عمارتها بالزرع والشجر أو البناء عليها[١].

والملك بالإحياء كما ذكرنا مكافأة لمن يعمر الأرض ويزرعها بعد أن كانت ميتة فتصبح خضراء تبهج الناظرين وتشبع الجائعين. فالزرع والشجر يمنع انجراف التربة وتعريتها فتتصحر بهذا وتزحف عليها الصحراء وتصبح جافة ويتغير الطقس وتقل الأمطار.

وليس للدولة أن تمنع الناس من إحياء الموات بل دور الدولة منع التخاصم بالتوثيق والتنظيم، حتى لا يعتدي الناس بعضهم على بعض، فيزعم بعضهم أن الإحياء كان بيده، وهو في الواقع بفعل غيره.

ثالثاً: الترغيب في إصلاح السباخ ومعالجة الأراضي المالحة والأراضي التي يظهر عليها الماء، وكافأ من يعمل ذلك بملكية ما أصلح. وهذا ما جرى عليه الخلفاء من عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلى مر العصور، ولم ينكر عليهم أحد، وخاصة الصحابة رضي الله عنهم، فقد اختار عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – من السواد كل مغيض ماء أو أجمة أقطعه لمن يصلحه ويحييه[٢].

وقد أقطع عثمان بن عفان، عثمان بن أبي العاص أرضاً بالبصرة، الأرض

---

(١) الكاساني، علاء الدين، بدائع الصنائع في ترتيب االزائع، ٦/ ١٩٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٢، والماوردي، الإحكام السلطانية، ص ١٧٧، وابن قدامه، المغني، ٥/ ٣٦٣، والمرغيناني، الهداية، ٩٨/٤ . وقدامه بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، ص ٢١٣، وأبو عبيد، الأموال، ص ٣٥١، وابن حزم، المحلى، ٢٤٣/٨، وأبو يوسف، الخراج، ص٦٥، والرملي، شهاب اليدن، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، ٣٢٦/٥، طبعة دار إحياء التراث.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص٦٣، مرجع سابق، جعفر بن قدامه، الخراج وصناعة الكتابة، ص٢١٧، شرح وتحقيق د. محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، ١٩٨١م، العرق، وأبو عبيد، كتاب الأموال، ص٣٥٠، وابن جزيء، محمد احمد المالكي، قوانين الأحكام الشرعية ومسائل الفروع الفقهية، ص ٣٥٥، عالم الفكر، الطبعة الأولى.

التي تعرف بشط عثمان، فإن الأرض كانت يومئذ كلها سباخاً وآجاماً فاستخرجها وأحياها وملكه بذلك إياها. وكذلك اقطع خلفاء بني أميه السباخ لمن يصلحها بزرعها، ومنها: إقطاع سعيد بن عبد الملك نهره الذي على الفرات وكان غيضة فيها سباع، فأعطاها إياه فعمرها، فهي نهر سعيد، وكل أرض يظهر عليها الماء فيقيم فيها حتى يحول بين الناس وبين زرعها والانتفاع بها كالبطائح ونحوها فإذا عالجها قوم وأزالوا عنها الماء فهذا من الإحياء، وهو سبب من أسباب التملك. وهذا ما قصده عمر بن عبد العزيز بقوله: " من غلب الماء على شيء فهو له " أي حسر عنه الماء وجففه حتى صار صالحاً للزراعة[١].

المؤيد الثاني: العقوبة المالية:

لم يقف الإسلام عند حد التوجيه والإرشاد والمكافآت، بل فرض عقوبة صارمة على المخالفين، ومن هذه العقوبات الصارمة التي فرضها الإسلام على الذين يملكون الأرض ويعطلونها: أخذها منهم، وتمليكها لمن يعمرها ويحافظ على عمارتها وزراعتها.

فقد أجبر الإسلام كل من ملك أرضاً على استغلالها، ويعطي المحتاج من بيت المال ما يمكنه من هذا الاستغلال. وبعد ذلك كل من يهمل الأرض ويعطلها ثلاث سنوات تؤخذ منه وتعطى لغيره.

فقد ثبت أن قوماً أقطعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أرضاً فنهض قوم فأحيوها فخاصم الذين أقطعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمر ابن الخطاب، فقال عمر: لو كانت قطيعة مني أو من أبي بكر لم أردها، ولكنها قطيعة من رسول الله فأنا أردها، ثم قال عمر: من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين فلم يعمرها فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها[٢].

---

(١) المراجع السابقة.

(٢) ابن قدامه المغني ٥/٥٦٩-٥٧١،وأبو يوسف،الخراج،ص٦١،٦٢، يحيى بن آدم، كتاب الخراج ص٧٨،٧٩،دار المعرفة -بيروت.

وعن أبي رافع قال: أعطى النبي صلى الله عليه وسلم قوماً أرضاً، فعجزوا عن عمارتها فباعوها في زمن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– بثمانية آلاف دينار أو ثمانمائة ألف درهم، فوضعوا أموالهم عند علي بن أبي طالب – رضي الله عنه– فلما أخذوها وجدوها تنقص فقالوا: هذا ناقص، قال: احسبوا زكاته، قال: فحسبوه فوجدوه وافياً، فقال: أحسبتم أني أمسك مالاً لا أزكيه[١].

فهذا يدل على أن مالك الأرض يجبر على استغلالها، فإن لم يستغلها يمهل ثلاث سنوات، فإن لم يستغلها بعد الثلاث أخذتها دولة الإسلام وأقطعتها غيره[٢].

ومن هذا كله يتبين أن ملكية الأرض تعني استغلالها، جبراً بوصف هذا الاستغلال جزءاً لا يتجزأ من الملكية، فإذا لم يحصل الاستغلال مدة ثلاث سنوات سقطت الملكية حتماً، وتؤخذ الأرض من مالكها جبراً، عملاً بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم. وليس لمحتجر بعد ثلاث سنين[٣] وعملاً بإجماع الصحابة على قول وفعل عمر.

وعليه فإن للدولة الإسلامية أن تأخذ كل أرض عطلت ثلاث سنوات متتالية؛ لأن الحديث (وليس لمحتجر بعد ثلاث) فسلط على نفي الحق بعد الثلاث وهذه من العقوبات المالية، وهي من المؤيدات التشريعية كما مر سابقاً.

المؤيد الثالث: مؤيدات تنظيمية ومنها:

إن الإسلام فرض الخراج على الأرض الخراجية بحسب ما تصلح له من زراعة، وهذا يدفع المزارع إلى زراعتها بما تصلح له، حتى يتمكن من دفع الخراج، ولا يؤدي زراعته للأرض بما لا تصلح له إلى التصحر، وبالتالي يعطلها فيفقدها، فالخلفاء كانوا يفرضون الخراج على الأرض لبيت المال بعد أن

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص٦٧، مرجع سابق.
(٢) المراجع السابقة
(٣) يحيى بن آدم، الخراج، باب التحجير، ص٩٠، مرجع سابق.

تمسح وتدرس أحوالها وما تصلح له من زرع وشجر ثم يفرض على ضوء ذلك الخراج.

قال الماوردي – رحمه الله – فأما قدر الخراج المضروب فيعتبر بما تحتمله الأرض، فإن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– حين وضع الخراج على سواد العراق ضرب في بعض نواحيه على كل جريب قفيزاً ودرهماً، وجرى في ذلك على ما استوقفت من رأي كسرى بن قباذ، فإنه أول ما مسح السواد ووضع الخراج وحدد الحدود ووضع الدواوين، وراعى ما تحتمله الأرض من غير حيف بمالك ولا إجحاف بزارع[١]، وزراعة الأرض بما لا تصلح له والتعامل معها بما يخالف طبيعتها كزراعة الأرض المحروقة بالبرازيل حيث قام المُلاّك بقطع الغابات المدارية ثم حرق الأشجار المقطوعة وزراعتها بالمحاصيل كالذرة والأرز والفول والقطن والبن، إلا أن هذه الطريقة ترتب عليها فقد التربة خصوبتها بسبب عوامل التعرية، لدرجة أن الأرض قد لا تأتي بعائد زراعي بعد مضي سنوات قليلة، وبعدها حوّل أصحاب الأرض التي تصحرت إلى أرض رعوية وجار عليها الرعي وأصبحت لا تصلح لشيء[٢].

ولو أن هذه الأراضي زرعت بأشجار مثمرة بدلاً من تلك الأشجار التي قطعوها وأحرقوها وزرعوا مكانها ما تصلح الأرض له، لحافظت الأرض على طاقتها ومقدرتها الانتاجية. ومن الأمثلة التي نعيشها في الأردن أن معظم أراضي الأردن – ومنها أراضي محافظة المفرق وإربد – كانت مكسوة بأشجار البطم، فقطعتها الدولة العثمانية في آخر أيامها، أي في بداية هذا القرن كوقود

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٤٨–١٥٠، الطبعة الثانية، ١٩٦٦، مطبعة مصطفى بأبي الحلبي بمصر.

(٢) د. يسرى الجوهري، ودناريمان، الجغرافية الاقتصادية، ص٣٥٩، ط١٩٨٧، توفيق، محسن عبد الحميد، ١٩٩٠، المنظومات البيئة، المؤتمر القومي الثاني للدراسات والبحوث البيئية، جامعة عين شمس، ٢٨ اكتوبر – ١ نوفمبر، المجلد الأول.

للقطار، ولم تزرع بالشجر بعد ذلك، فتحولت إلى صحراء تذروها الرياح قاحلة، لا تنبت الزرع، ولا تدر الضرع، ولا تشبع بطون الجوعى، ولا تسر الناظرين[١].

وحتى يضمن الإسلام زراعة الأرض بما تصلح له، فرض الخراج بناءً على هذا، ومن هنا كانت هناك دائرة خاصة بالخراج ومساحة الأرض، لدراسة واقع الأراضي وما تصلح له من زرع وشجر وفرض الخراج بناءً على هذه الدراسة[٢].

المؤيد الرابع:

مؤيدات تأديبية تتمثل في فرض الغرامة كما فعل عمر رضي الله عنه في أناس سألوه أرضاً من أرض أندركيسان لمربط خيلهم أي (للمرعى) فأعطاهم طائفة منها فزرعوها فانتزعها منهم وأغرمهم[٣]، وفعل عمر رضي الله عنه مثلها في غوطة دمشق.

هذه مؤيدات شرعية فرضها الإسلام ليحافظ على الأرض وصلاحيتها ويمنع تلوثها (بالتصحر) لأن التصحر مظهر كبير من مظاهر التلوث وهو من فساد الإنسان وإفساده للأرض، سواء بتعطيلها أو بزراعتها بما لا تصلح له أو استخدام ما يؤدي إلى زيادة ملوحتها بإضافة الأسمدة، أو استخدام المياه العادمة... إلخ.

---

(١) عبد اللطيف، عيسى محمد، ١٩٩٥، استراتيجيات التنمية المستدامة، ورشة عمل التنمية المستدامة، الجمعية السودانية لحماية البيئة ومؤسسة مزدريش، بيروت، قاعة الشارقة، الخرطوم، ديسمبر، ١٩٩٥.

(٢) الإمام الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الخليلي، الاستخراج لأحكام الخراج، ص ٤٦، دار المعرفة بيروت.

(٣) المرجع السابق، ص٤٢.

المطلب الخامس

القواعد الشرعية للمحافظة على البيئة

تقرر الشريعة الإسلامية أن المحافظة على البيئة وحمايتها من التلوث إنما هي واجب على الأفراد والجماعات والمجتمعات.

واجب فردي يلتزم به الفرد تجاه ربه وكذلك الجماعة؛ لأن للإنسان الحق في الانتفاع بالموارد البيئية، وهذا الانتفاع هو حق مشترك بين كل أفراد المجتمع، فمن حق كل فرد أن ينتفع بالموارد المتاحة بقدر حاجته دون أن يعطل حق انتفاع الآخرين، وإذا تسبب فرد ما في إتلاف الموارد أو إفسادها فيجب عليه إزالة الضرر وإصلاحه، لأنه اعتدى على حق كل فرد من أفراد المجتمع.

ومن واجب جميع أفراد المجتمع عدم التبذير والإسراف في استهلاك المورد البيئي، وعدم تعطيل أو إتلاف أي مورد دون وجه مشروع، ودون مصلحة عامة ترجى من ذلك، كذلك من واجبهم عدم الإضرار بالبيئة الطبيعية بوجه عام، وعدم إفسادها وتلويثها بأي شكل من الأشكال. كما على الأفراد حماية البيئة وحماية التربة وتنقية الماء والهواء وحماية البيئة بصورة عامة، كما عليهم القيام بهذه المسؤولية الجماعية، أي أن تقوم الجماعة بردع الآخرين (فرداً وجماعة) عن القيام بأي عمل يضر بالبيئة على أساس أن الهلاك مصير الجميع إن لم يتم المنع، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا)[1].

---

(١) رواه البخاري والترمذي وأحمد.

أما واجب الحكام بالنسبة لحماية البيئة والمحافظة عليها وعلى مواردها من ناحيتين:

أولاً: من ناحية علاج الضرر إذا حدث، وثانياً: من ناحية الوقاية من الضرر قبل حدوثه.

وتبنى سياسة ولاة الأمور في الإسلام من ناحية علاج الضرر على الحديث الشريف (لا ضرر ولا ضرار)[١] وهذا الحديث هو جماع المنهج الإسلامي تجاه البيئة، ويترتب على هذا الحديث عدة قواعد أهمها:

أولاً: الضرر يزال: فلولاة الأمور الحق في إجبار من يحدث ضرراً في البيوت أو الشوارع أو الأسواق بإزالة الأضرار الناتجة عن أعمالهم وتصرفاتهم، والتي قد يترتب عليها الإضرار بالبيئة، وقد طبقها الإسلام عن طريق قاضي الحسبة والكتب التي تطرقت إلى هذا الموضوع مليئة بالأمثلة على ذلك[٢].

ثانياً: درء المفاسد مقدم على جلب المصالح: فلولاة الأمور منع المباح إذا ترتب على وجوده ضرر بالبيئة يفوق النفع المتوقع منه، كمنع المشروعات الاقتصادية والصناعية والزراعية التي تنطبق عليها القاعدة المذكورة، فلولي الأمر منع استخدام المبيدات والهرمونات والعلاجات التي تلحق الضرر بالناس، ويثبت ان المحاصيل الزراعية تحمل جزءاً منها إلى المستهلك، وكذلك المصانع التي تسبب الأمراض، ويصدر منها الاشعاعات الضارة، أو الدخان المحمل بالسموم.

ثالثاً: اختيار أخف الضررين وذلك بحرق النفايات قرب المناطق البعيدة ذات التعدد السكاني الأقل من المناطق ذات الكثافة السكانية العالية إذا تعذر نقلها إلى مناطق غير مأهولة بالسكان.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأحكام، رقم (٢٣٣١)، من حديث عبادة بن الصامت.

(٢) القرشي، ابن الأخوة، محمد بن محمد بن حمد، ١٩٧٦، القربة في أحكام الحسبة، والماوردي، الأحكام السلطانية، ولاية الحسبة، والشيرازي، عبد الرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة.

رابعاً: الضرر لا يزال بمثله: ومثال ذلك استخدام المبيدات الضارة والتي تضر بصحة الإنسان والحيوان لعلاج بعض الآفات والحشرات.

خامساً: تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، مثال ذلك: المشاريع التنموية ومستلزماتها: من فتح طرق، وبناء الجسور، ومد الشبكات من السكك الحديدية، وإقامة مطارات في هذه المواقع لا ينفع إقامتها في غيرها، وهذه المشاريع تخدم المصلحة العامة، ويترتب عليها ترحيل بعض السكان عن مناطق سكناهم إلى مناطق أخرى، وعدم إقامة هذه المصلحة تضر بالمجموع، فهنا يجب على ولاة الأمور تعويض السكان وتسكينهم، وترجيح المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

سادساً: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فيجب على ولي الأمر منع تلوث المياه، وتسرب المياه العادمة إلى مساقط المياه العذبة، وهذا الواجب لا يتم إلا بإيجاد مشاريع الصرف الصحي لمنع التلوث وإضرار الناس، وكذلك التخلص من النفايات لا يتم إلا بإيجاد مصانع لتدويرها.

سابعاً: تدخل ولي الأمر منوط بالمصلحة، لأن واجب ولي الأمر رعاية مصالح الرعية، والمحافظة على تنفيذ الأحكام، وولي الأمر نائب عن الأمة في تنفيذ شرع الله في الداخل وحمل دعوة الإسلام إلى العالم عن طريق الجهاد في الخارج، ولهذا فتدخله في شؤون الرعية منوط بتحقيق مصالحهم ورعاية شؤونهم، وتطبيق هذه القواعد وغيرها من القواعد الشرعية من قبل ولاة الأمور، يحول دون تلوث البيئة، ويحافظ على توازنها[١].

---

(١) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي، الاشباه والنظائر، دار الكتب العلمية – بيروت، ٤١/١. والسيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمن، الاشباه والنظائر في قواعد وفروع الشافعية، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ص ٨٦، والبورنو، محمد صدقي بن احمد، موسوعة القواعد الفقهية، الطبعة الولى، ١٤١٦هـ، ٤٨/١.

المطلب السادس

تطبيقات المنهج الإسلامي في الحفاظ على البيئة

أولاً: ولاية الحسبة في الماضي:

الحسبة في اللغة: بكسر الهاء وسكون السين وفتح الباء: مصدر احتسابك الأجر. والاسم الحسبة بالكسر، وهو: الآجر[١].

واصطلاحاً: هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن منكر إذا ظهر فعله[٢]، قال الله تعالى ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[٣]، وعرفها ابن خلدون[٤] بأنها: " وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلاً، فيتعين فرضه عليه".

والحسبة: هي ولاية في الدولة الإسلامية من أهم الولايات الإدارية ذات الصفة الرقابية، ومنوط بها مراقبة السلوك البشري في المجتمع الإسلامي، وهي واسطة بين أحكام القضاء (قضاء العقوبات والصلاة) وقضاء المظالم (وهو القضاء المختص بفصل الخصومات بين الراعي والرعية)[٥].

كان نطاق الحسبة أولاً الأسواق وما يرتكب فيها من ممارسات تجارية أو منكرات – ولذلك عرفت هذه الولاية في بداية الأمر بولاية السوق – ثم تطورت بعد ذلك لتشمل كافة النشاط البشري الاقتصادي والاجتماعي وقطاع التعليم والقطاع الطبي الذي يمارسه الناس في حياتهم. فبجانب الحسبة على الأسواق

---

(١) ابن منظور – لسان العرب.
(٢) الماوردي، علي بن محمد أبي الحسن (٤٥٠هـ)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ٢٤٠، ط٢١، مكتبة بابي الحلبي – مصر.
(٣) سورة آل عمران، آية ١٠٤.
(٤) ابن خلدون – المقدمة، ص٢٢٥، الطبعة الرابعة، دار الكتب العلمية – بيروت.
(٥) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٤٢، مرجع سابق.

وتوزيعها المكاني وقوانين تجاور المحال التجارية ومواصفاتها، كانت أيضاً من واجبات المحتسب مراقبة الفراغات (الساحات العامة، والأماكن الفارغة من البناء، والحمامات، ومراقبة ومحاسبة كافة المهن والنشاطات البشرية) وكان يوضع على رأس كل مهنة شخص (يسمى شيخ) من أهلها، ليطلع المحتسب على نوع الغش والأخطاء التي تقع من اهل صنعته، لأنه من الصعب على المحتسب أن يلم بكل أنواع الممارسات الخاطئة في كل المهن والصناعات.

ومن أهم واجبات المحتسب مراقبة النواحي الصحية للأشخاص الذين يتعاملون في أمور الأكل والشرب، ففي مجال الحسبة على الخبازين والفرانين فكانوا يأمرونهم برفع سقائف أفرانهم، وأن يجعلوا فيها منافذ واسعة لخروج الدخان؛ لئلا يتضرر الناس من ذلك. ولا بد من مراعاتهم للنظافة في أبدانهم وأوعيتهم، ولا يعجن العجان بقدميه ولا ركبتيه ولا بمرفقيه؛ لأن في ذلك مهانة للطعام، وربما قطر العرق على العجين، وأن يكون ملثم الوجه ويشد على جبينه عصابة بيضاء تفادياً لنزول العرق، وإذا عجن في النهار فلا بد أن يكون معه شخص في يده مذبة ليطرد عنه الذباب.

وضمن اختصاصات المحتسب مراقبة الفراغات – كما ذكرنا – وسلوك مستخدميها، فقد كان المحتسب يمنع طرح النفايات والجيف في الفراغات وفي الطرق، كما يمنع الخضارين وغيرهم من طرح أزبالهم في الفراغات؛ لئلا يتضرر الناس، ويمنع من يجلس في الفراغات لبيع السلع وما إلى ذلك، لضمان نظافة الفراغات، وقد امتلأت كتب الحسبة بالأمثلة على ذلك[١].

ولا بد من الإشارة – هنا – إلى أن هذا النوع من القضاء لا يشترط فيه

---

(١) انظر ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي، القربة في أحكام الحسبة، ص ١٣٦–٢١٠، والماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٤٠–٢٥٩، والشيزري، عبد الرحمن بن نصر (١٩٨١) نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ومراجعة د. السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية.

مجلس قضاء بل يقضى فيه في السوق وفي الشوارع وعلى أبواب البيوت، وهو من القضاء المستعجل الذي من لوازمه القرارات الفورية والتنفيذ الفوري.

ثانياً: الحاجة إلى وجود هذا القضاء في عصرنا الحاضر.

في ضوء هذه المعطيات التي أوردناها بشأن قضايا البيئة ومشكلاتها من جهة وغياب الرقابة والتشريعات الفاعلة من جهة أخرى، فإن الرجوع إلى كتب الفكر الإسلامي المتمثل في النظم والتشريعات وآليات تنفيذها مثل نظم الحسبة وتفعيلها يعتبر أمراً ضرورياً وهاماً في هذا الوقت الذي يشهد فيه العالم تلوثاً بيئياً عظيماً، ظهرت أخطاره وأضراره على البشرية جمعاء.

إن على ولاة الأمور تفعيل مثل هذه النظم المتعلقة بالحفاظ على البيئة – وعلى رأسها نظام الحسبة – ووضع القوانين البيئية اللازمة المستمدة من مصادر الإسلام المعتبرة وتطبيقها.

ويجب أن لا تقتصر مهمة هذا الديوان (الحسبة) المقترح على الرقابة، بل الحكم والتنفيذ كما هو شأن قضاء الحسبة، إضافة إلى القيام بواجب التوعية على الأحكام المتعلقة بالمحافظة على البيئة والتنسيق مع مؤسسات التعليم وأجهزة الإعلام لتحقيق ذلك.

الخـاتمـة

النتائج والتوصيات:

خُلص البحث إلى النتائج والتوصيات التالية:

أ – النتائج:

أولاً: إن سبب التلوث هو الإنسان بفساده وانحرافه، وهذا بسبب فساد مفاهيمه عن الحياة، وعلاج الفساد يكون بتغيير مفاهيم الإنسان المنحرفة عن الحياة.

ثانياً: إن تشريعات الإسلام المنبثقة عن وجهة نظره في الحياة تحول دون الفساد في الأرض وتلوث البيئة.

ثالثاً: ضمن الإسلام تطبيق هذه التشريعات والالتزام بها من خلال المؤيدات الشرعية المتعلقة لهذا الجانب.

ب – التوصيات:

أولاً: نشر الوعي بين الناس عن أهمية المحافظة على البيئة والتحذير من خطورة التلوث عن طريق وسائل الإعلام المختلفة، وعقد المؤتمرات العلمية وإيجاد مراكز دراسات متخصصة لذلك.

ثانياً: تضمين مناهج التعليم في المراحل المختلفة منهج الإسلام في التعامل مع البيئة والمحافظة عليها ووضع الحلول وفق الشريعة الإسلامية.

ثالثاً: مطالبة الدول في العالم الإسلامي بالتوجه بالعمران نحو الصحراء حماية للمناطق الزراعية من زحف العمران والبناء.

رابعاً: دعوة الحكومات في العالم لإقامة المشاريع الصناعية بعيداً عن التجمعات السكانية حتى لا تتأثر بالآثار السلبية لهذه الصناعات.

خامساً: دعوة الدول في العالم إلى معالجة المشاكل الناجمة عن محطات

التنقية للمياه العادمة بحيث تكون بعيدة عن مصادر المياه والينابيع والسدود والبحيرات والتجمعات السكانية.

سادساً: دعوة المفكرين والباحثين في مجالاتهم إلى عرض الرؤية الإسلامية الشاملة للبيئة ومشكلاتها والعمل على تصحيح المسار وبيان مواطن الخلل كلما أتيحت لهم الفرصة في المحافل العلمية والفكرية.

سابعاً: التأكيد على دور المنظمات والمؤسسات الحكومية والخاصة في نشر الوعي البيئي وفق القواعد الإسلامية.

المراجع

١ – القرآن الكريم.

٢ – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر.

٣ – أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي، ١٩٦٦، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى بابي الحلبي، القاهرة.

٤ – أبو محمد، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامه المتوفى (٦٢٠)، المغني، مكتبة الرياض الحديثة.

٥ – أبو يوسف، ١٩٧٥، كتاب الخراج، دار الفكر، القاهرة.

٦ – أبو عيسى، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، سنن الترمذي، مطبعة مصطفى بابي الحلبي، القاهرة، مطبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٧ – الإمام الحافظ، احمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري، شرح صحيح البخاري، دار الفكر للطباعة.

٨ – الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ابن ماجه، ١٩٧٥م، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة مصطفى بابي الحلبي، القاهرة.

٩ – الحافظ البوصيري، مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، الطبعة الأولى، دار الجنان.

١٠– القاضي تقي الدين، ١٩٦٣، الأسباب الموجبة، الطبعة الأولى، القدس.

١١– أبو الحسن، مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، ١٣٨٤هـ، الجامع الصحيح، طبعة كتاب التحرير، الطبعة الثالثة، دار الفكر – بيروت.

١٢– أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، صحيح البخاري، مطابع الشعب، القاهرة، ١٣٧٨هـ.

١٣– أبو عبد الله، مالك بن انس الأصبحي، ١٩٧٩م، الموطأ، الطبعة الثانية، المكتبة العلمية.

١٤- الإمام الحافظ، أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، الاستخراج لأحكام الخراج، دار المعرفة – بيروت.

١٥- أبو عبيد، القاسم بن سلام، ١٩٧٥م، كتاب الأموال، تحقيق وتعليق محمد خليل هراس، الطبعة الثانية، دار الفكر – القاهرة.

١٦- ابن آدم، كتاب الخراج، دار المعرفة – بيروت.

١٧- الأصفهاني، الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق نديم المرعشلي، دار الكتاب العربي – بيروت.

١٨- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، دار الفكر، وتفسير القرآن العظيم، عيسى بابي الحلبي، دار إحياء الكتب العربية.

١٩- ابن خلدون، ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن (١٩٧٨)، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الرابعة.

٢٠- ابن جزيء، محمد بن أحمد، قوانين الأحكام الشرعية، ومسائل الفروع الفقهية، عالم الفكر، الطبعة الأولى.

٢١- ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي، ١٩٧٦م، القربة في أحكام الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان، وصديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٢- ابن منظور، لسان العرب.

٢٣- بدر، عادل فهمي، القرآن والسنة وتحذير السماء من تلوث البيئة، ورقة مقدمة إلى المؤتمر العلمي الثاني لكلية الشريعة، جامعة جرش، المنعقد ما بين ٢١- ٢٣/١١/٢٠٠٠م.

٢٤- توفيق، محسن عبد الحميد، ٢٨ اكتوبر، المنظومات البيئية، جامعة عين شمس، المجلد الأول.

٢٥- جامعة الدول العربية – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مرجع في التعليم البيئي لمراحل التعليم العام، ١٩٧٦ م.

٢٦- حفار، سعيد، ١٩٨٦م، التلوث البيئي، ورقة مقدمة إلى ندوة البيئة وحمايتها من التلوث، مكتب التربية العربي، الكويت.

٢٧- الخياط، عبد العزيز، ١٩٨٦م، المؤيدات التشريعية (نظرية العقوبات)، الطبعة الثانية، دار السلام للطباعة والنشر.

٢٨- الجندول، جاسم محمد، (٢٠٠٠م)، الأمراض المشتركة بين الحيوان والإنسان، مجلة أبقار وأغنام، العدد ٢٥.

٢٩- رشيد الحمد ومحمد سعيد الصباريني، ١٩٧٩م، البيئة ومشكلاتها، العدد (٣٢) من سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، أكتوبر.

٣٠- رشيد، احمد (١٩٨١م)، عالم البيئة، معهد الإنماء العربي، سلسلة دراسات العلوم المتكاملة – لبنان.

٣١- رأفت، سليمان، ١٩٨٣م، أخطار تلوث البيئة، مجلة الأمة، عدد ٢٧، السنة الثالثة.

٣٢- الرملي، شهاب الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزه، الشهير بالشافعي الصغير (١٠٠٤ هـ)، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

٣٣- زين الدين عبد المقصود، البيئة والإنسان رؤية إسلامية، دار البحوث العلمية.

٣٤- سحر مصطفى حافظ، التنمية الصناعية والحماية التشريعية للبيئة من التلوث، ورقة مقدمة إلى المؤتمر الدولي الخامس عشر للإحصاء والحسابات العلمية والعلوم، دار البحوث العلمية الاجتماعية.

٣٥- سلامه، أحمد عبد الكريم، ١٩٩٦م، قانون حماية البيئة مقارنة بالقوانين الوضعية، الطبعة الأولى، القاهرة.

٣٦- الشيزري، عبد الرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ومراجعة، د. السيد الباز العريني، دار الثقافة – بيروت، الطبعة الثانية.

٣٧- الشيخ، بدوي محمود، قضايا البيئة من منظور إسلامي، الطبعة الأولى، الدار العربية للنشر.

٣٨- عبد اللطيف، عيسى محمد، ١٩٩٥م، استراتيجيات التنمية المستدامة، ورشة عمل، الجمعيات السودانية لحماية البيئة، الخرطوم، ديسمبر.

٣٩- عياد، محمد عبد الجواد، ١٩٩٠م، الاستقرار والتوازن في المنظومة البيئية، مجلة التربية، قطر.

٤٠- غرايبه، سامح، ١٩٨٨م، التلوث البيئي في الأردن، الموسم الثقافي في العالم، ١٩٨٧، جامعة اليرموك، اربد.

٤١- المالكي، عبد الرحمن، ١٩٦٣م، السياسة الاقتصادية المثلى، الطبعة الأولى.

٤٢- المكاوي، علي، ١٩٩٥م،البيئة والصحة، دراسة في علم الاجتماع الطبي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

٤٣- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، دار الحديث للطبع والنشر، بيروت.

٤٤- محمد بن أبي بكر الرازي، ١٩٨٣م، مختار الصحاح، منشورات دار اسامة، الطبعة الثالثة، بيروت.

٤٥- الفقي، محمد عبد القادر، ١٩٩٣م، البيئة مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث، رؤية إسلامية، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، القاهرة.

٤٦- القصاص، محمد عبد الفتاح، ١٩٩٨م، الإنسان والطبيعة والتكنولوجيا، ورشة عمل شبه الإقليمية حول إعداد إدارة الجمعيات الطبيعية وحماية ورشة التراث الطبيعي، الخرطوم.

٤٧- النجار، عبد الهادي، ١٩٨٣م، الإسلام والاقتصاد، عالم المعرفة، عدد (٦٣) جمادى الأولى – جمادى الآخرة.

٤٨- يسرى الجوهري، ١٩٨٧م، ود. ناريمان، الجغرافية الاقتصادية.